نظرة في معاجمنا اللغوية

الأستاذ: عيسى فتوح

لو رحنا نحصى أسماء معاجمنا اللغوية التى ألفت على مدى عشرة قرون ، منذ أن صنف الخليل بن أحمد الفراهيدى أول معجم له وهو «كتاب العين» حتى اليوم لبلغت العشرات . . . طبع بعضها ، وما يزال بعضها الآخر مخطوطا . من هذه المعاجم المطبوعة الميتة — اما لقلة استعمالها ، واما لانها توقفت عند عصر معين — يمكننا أن نعد : «الجمهرة» «لابن دريد» ، «التهذيب» «لابى منصور الهروى» ، «المحكم» لابن «سيده الاندلسى» «المجمل» و «مقاييس اللغة» «لابن فارس» ، «أساس البلاغة» «للزمخشرى» ، «النهاية فى غريب الحديث» «لابن الاثير » ، «المصطلح المنير» «للفيومى» ، «تاج اللغة وصحاح العربية» «للجوهرى» ، «لسان العرب» «لابن منظور» ، « القاموس المحيط » « الفيروزابادى » الذى شرحه المرتضى الزبيدى فى القرن الثانى عشر الهجرى وزوده بالشواهد الكثيرة فى معجمه «تاج العروس» .

هذه المعاجم على كثرتها ، غير كافية لانها بعيدة جدا عن مقتضيات العصر ، وما تتطلبه وسائل البحث الحديثة من سهولة ووضوح وقرب مأخذ ، وانطلاقا من هذا المبدأ فقد عمد الاستاذان يوسف خياط ، ونديم مرعشلى فى بيروت الى تغيير طريقة الكشف فى لسان العرب ، بأن الغيا باب الحرف الاخير وفصل الحرف الاول للاصل الثلاثى للكلمة ، واكتفيا بباب الحرف الاول ثم طبعاه فى ثلاثة أجزاء فقط ، فوفرا بذلك العمل الكثير من الوقت والجهد على المراجع .

علة هذه المعاجم جميعا هى تحجرها وجمودها ، ذلك أنها تعنى باثبات الالفاظ القديمة حتى ولو كانت غريبة وميتة ، وتحاول توضيحها والاستشهاد عليها بالقرآن والحديث والشعر الذى يحتج به ، وتهمل كثيرا من الالفاظ والاستعمالات الجديدة التى وردت على السنة الشعراء والكتاب المتأخرين ، فالاحتجاج يقف عند هؤلاء المؤلفين عند نهاية العصر الاموى فقط ، ولا يمتد الى العصر العباسى ، بحجة أن اللغة فشا فيها الكثير من اللحن والخطأ على السنة العامة من الناس، لاختلاط العرب بالاعاجم من فرس وروم واتراك وغيرهم.

الواقع ان هؤلاء العلماء كانوا شديدى التزمت ، متحفظين اكثر من اللازم ، الامر الذى دفع المستشرق الهولندى « دوزى » الى تأليف معجم ضخم سماه « ملحق المعاجم العربية » نشره فى ليدن ، فى مطلع هذا القرن .

لقد بين دوزى أن واضعى المعاجم العربية كانوا راغبين عن استعمال اى كلمة لا تمت بصلة الى لغة القرن الهجرى الثانى وما قبله ، واقفين فيه عند الزمن

الذى بدا فيه العرب يحتلون مكانتهم فى ركب الحضارة العالمية ، ويتقبلون كثيرا من الالفاظ الجديدة التى ترجع باصولها الى اللغات الأجنبية ، كى يعبروا عن الاشياء والافكار الجديدة ·

ان اهمال معاجمنا القديمة الكثيرة من الالفاظ والاستعمالات الحديثة فى ازهى عصور الحضارة العربية — كالعصرين العباسى والاندلسى — اصاب اللغة فى الصميم وجعلها تفقد جانبا كبيرا من مرونتها وطواعيتها ، وتتخلف عن مواكبة الحياة ، وتبقيها هياكل محنطة لا يجرؤ اى كاتب او شاعر ان يخرج عن الحدود الضيقة التى رسمتها هذه المعاجم ·

ولكى لا يختلط كلام العرب الدخيل بالكلام الفصيح فى معجم واحد ، عمد الجواليقى فى القرن السادس الهجرى الى تأليف كتاب خاص اسماه «المعرب» جمع فيه الالفاظ التى لم تدخل المعاجم ، لانها جاءت بعد القرن الهجرى الثانى ، وكذلك فعل الشهاب الخفاجى فى كتابه « شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل »·

لاشك فى ان المعاجم العربية القديمة غنية المادة ، تدل على اطلاع واسع ، ومجهود كبير فى الجمع والتصنيف ، ولها قيمة تاريخية لاتنكر ، وستظل خير مورد لنا فى معرفة اصول الكلمات ، ومعانيها الغريبة، وعباراتها الغامضة ، الا انها كثيرا ما تخطىء فى ضبط الكلمات ، وتكثر من ايراد المترادفات والاستشهادات من القرآن والحديث والشعر الجاهلى والاسلامى ، ولا تقبل الا ما اخذ عن البادية ، وتقف فى الاحتجاج عند القرن الهجرى الثانى ، مهملة جميع العصور التى تعاقبت بعد ذلك ، فلم تمثل بذلك العصر الذى جمعت فيه ، وكأن اللغة تجمدت عند هذا القرن ، ولم تتطور او تستفيد من لغات الأمم والشعوب التى امتزجت فيها، وصارت جزءا لا يتجزأ من الأمة العربية ·

لقد اغفلت هذه المعاجم قانون التطور الذى يقضى بأن تساير اللغة العصر ، وتتابع سير الحياة والمجتمع الذى عاشت فيه ، بالاضافة الى ما ورد فيها من حشو وتكرار واجترار ، يأخذ اللاحق عن السابق ، حتى أن ابن منظور صاحب اكبر معجم عربى وهو «لسان العرب» يعترف بأنه لم يفعل شيئا اكثر من انه جمع « تهذيب » الازهرى ، و «وصحاح» الجوهرى ، و «محكم» ابن سيده ، و «نهاية» ابن الأثير ! ·

المعاجم الحديثة :

استمرت الحال كذلك حتى القرن الثامن عشر ، حينما تنبه المطران جرمانوس فرحات الحلبى (1670 — 1732) الى ظاهرة توقف المعاجم عند تاريخ معين ، ولاحظ هذه الفجوة الكبيرة بينها وبين لغة ما يكتب وينشر، فهى فى واد واللغة فى واد آخر ، فالف معجمه « احكام باب الاعراب » الذى اعتمد فيه على القاموس المحيط ، والمصادر التى نقل عنها ، فأخذ منها ما اهمله القاموس من الفاظ ، واضافها اليه من جديد ، فجاءت مكملة له ، ملتحمة بمادته كل الالتحام ·

ثم تلاه احمد فارس الشدياق (1804 — 1888) الذى الف معجمه « الجاسوس على القاموس » فى نقد القاموس المحيط فجاء فى حوالى سبع مئة صفحة ، وكانت غايته منه الوصول بالمؤلفين الى ايجاد معجم عربى حديث يستوعب اكبر عدد من الالفاظ الدقيقة المستعملة فى اقل عدد من الصفحات ·

لم يكتف الشدياق بهذا القاموس ، بل الف معجما جديدا اعتمد فيه على مخارج الحروف وعلى القلب والابدال اسماه «سر الليال فى القلب والابدال» جمع فيه المفردات المتداولة والمترادفات ، وما استدركه على الفيروزابادى من الالفاظ والمعانى ·

لقد كانت غاية الشدياق من معجمه ابراز فضل اللغة العربية وايضاح مزاياها ، والسعى الى اثبات حقيقة مرونتها ، وانها غير قاصرة عن استيعاب العلوم والمصطلحات العصرية ·

ثم سار على منواله فى حركة الاحياء اللغوى عالمان لبنانيان آخران هما بطرس البستانى (1819 — 1883) صاحب « محيط المحيط » الذى رتب مواده ترتيبا هجائيا سهلا ، واقتصد فى الشواهد والنصوص ؛ وسعيد الشرتونى (1849 — 1912) صاحب « اقرب الموارد فى فصيح العربية والشوارد » الذى لقى رواجا اكثر بسبب احكام ترتيبه ، واختصار شواهده·

وما ان اطل القرن العشرون حتى ظهرت العناية

الخاصة بالمعاجم ، ولا سيما الصغيرة الحجم مثل «مختار الصحاح» « للرازى » و « المصباح المنير » « للفيومى »، لكنهما يظلان ناقصين عن استيعاب الالفاظ والكلمات الحديثة المستعملة التى يحتاجها الكاتب، وتقتضيها طبيعة العصر ، الى ان ظهر معجم «المنجد» للاب لويس معلوف اليسوعى فى طبعته الاولى عام 1908 وهو معجم صغير سهل الاستعمال ، تتالت طبعاته بسرعة هائلة حتى الآن اثنتين وعشرين طبعة ، ثم اضيف اليه فى الطبعات الاخيرة قسم جديد للآداب والعلوم وفهرس للاعلام ، وقد سار فى طريقته على منهج معجم «لاروس الصغير» وخاصة فى قرب مأخذه ووسائل ايضاحه ، ولوحاته وصوره ورسومه .

كذلك اخرجت مطابع لبنان معجمين حديثين آخرين هما «الرائد» لجبران مسعود الذى رتبت مواده حسب لفظ الكلمة دونما حاجة للرجوع الى اصلها الثلاثى ، وخلال المراجعة يبين ذلك الاصل ويضبط عين المضارع، اما المعجم الآخر فهو «المنجد الابجدى» الذى صدر عن دار المشرق ويتبع الطريقة نفسها ، وفى المعجمين جهد واضح ورغبة ظاهرة فى تيسير المراجعة والبحث، لكنهما اغفلا كثيرا من المصادر والجموع ، وشتتا المادة اللغوية فى اماكن متعددة .

المعجم الوسيط :

اللغة كل متصل الاجزاء ، لا يمكن ان نفصل حاضره عن ماضيه ، والعربية — ككل لغات العالم — لها ماضيها الخالد، وحاضرها الحى، ومستقبلها المشرق فكيف نقف بها عند القرن الثانى أو القرن الرابع الهجرى؟ اذا توقفنا بها عند زمن معين — كما فعل علماء اللغة والنحو ومؤلفو المعاجم القديمة — قضينا عليها بالموت تضاء مبرما ، ولذلك يجب علينا اليوم أن نؤلف معاجم يتصل فيها حاضر اللغة بماضيها ، ويحفظ فيها ما جمد واهمل لقلة الاستعمال — كما تحفظ المومياء فى المتاحف — الى جانب الالفاظ الحية ، والكلمات المستعملة . اللغة كائن حى يجب أن تتجدد خلاياه باستمرار لئلا يندثر ويموت ،ومن هذا المنطلق نهض مجمع اللغة العربية فى القاهرة عام 1946 لتأليف معجم كبير وآخر وسيط مستعينا بالمستشرق الالمانى الدكتور «فيشر» الذى عنى بالمعاجم العربية ، ورغب أن ينهج فيها نهجا جديدا ، لكن الرجل توفى عام 1949 دون أن يحقق العمل المرجو ، وان كان قد سار فيه شوطا طويلا ، فأكمل المجمع ما بدأ به فيشر، ونشر عام 1956 جزءا منه فى حوالى خمس مئة صفحة، ضم الفاظا حديثة الى جانب الالفاظ التى كانت سائدة فى الجاهلية وصدر الاسلام ، وأخذ بنصيب وافر من المصطلحات العلمية والتاريخية والجغرافية واسماء الاعلام ، والتزم بمبدأ تقديم الافعال على الاسماء والمجرد على المزيد ، واللازم على المتعدى ، والحسى على المعنوى ، والحقيقى على المجازى .

الا ان المعجم الوسيط الذى صدر بعده بجزئين كبيرين وفى حوالى الف ومئة صفحة لسد حاجة الطلاب والمدارس ، كان أكثر استعمالا ، وأوفى بحاجة الراغبين فى البحث السريع والدقيق ، فقد جاء محكم الترتيب، واضح الاسلوب ، سهل المأخذ ، مزودا بالصور ، بالاضافة الى احتوائه طائفة كبيرة من مصطلحات العلوم والفنون واسماء الاعلام البارزين ، والاماكن ، على نمط معجم «لاروس» الفرنسى . والاهم من ذلك كله انه ضم جميع مفردات اللغة قديمها وحديثها ، وأخذ بما استقر من الفاظ الحياة والناس .

كما انه رتب الكلمات حسب نطقها ، لا حسب تصريفها ، اذ لا يستطيع التلميذ الحديث السن أن يرد الكلمة الى اصلها الثلاثى ، لينطلق فى معرفة باقى معانيها — ومثل ذلك فعل جبران مسعود فى الرائد ، ومؤلفو المنجد الابجدى — ، وسهل الشرح ، وكتب بلغة العصر وروحه ، واكتفى بالضرورى من الشواهد لئلا يضيع المراجع فى متاهاتها وتشعباتها ، وطور اللغة ، فقاس السماعى ، وقبل الكثير من الالفاظ المولدة والمحدثة أو المعربة ، أو الدخيلة ، وفتح المجال للعديد من الفاظ الحياة العامة ، والالفاظ التى ادخلتها الحضارة ، ويكفيه شهرة انه جدد اللغة ، وجعلها عصرية ، وهدم الحدود الزمانية والمكانية التى اقيمت خطأ بين عصور اللغة المختلفة .

ما احوجنا اليوم الى معاجم عصرية ، تتجدد طبعاتها كل عام ، فتضم اليها كل ما دخل اللغة من الفاظ حديثة وتتبناها ، لان لغتنا كغيرها من اللغات لا يمكن أن تعيش معزولة عن سائر اللغات العالمية ، تأخذ منها وتعطيها ، تستفيد منها وتفيدها ، ولا معنى لادعاء البعض أن اللغة العربية قاصرة عن استيعاب مصطلحات

العلوم والفنون والتكنولوجيا الحديثة ، وأنها لغة لا تقبل التجديد والتطور .

يمكن ان تسير لغتنا الجديدة جنبا الى جنب مع لغتنا القديمة ، فيستعمل الكاتب ما يشاء من الالفاظ والتعابير ، ولا بأس أن يلجأ الى القياس والنحت والاشتقاق ، عندما تقتضيه الضرورة ، وأن يبتكر الفاظا جديدة وعبارات لم تكن من قبل ، فاللغة تحيا على السنة الناس ، واقلام الكتاب ، وليس في المعاجم التى تحفظها وتصونها فقط .

المصادر :

1 ـ نظرة تاريخية في حركة التاليف عند العرب (في اللغة والادب والتاريخ والجغرافيا) الجزء الاول ـ الدكتور امجد الطرابلسى ـ مطبعة الجامعة السورية 1955

2 ـ حركة الاحياء اللغوى في بلاد الشام ـ الدكتورة نشاة ظبيان ـ مطبعة سميراميس دمشق ـ 1976

3 ـ في اللغة والادب ـ الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ـ اقرأ ـ 337 ـ يناير 1971